دكتورة عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطئ)

بين العقيدة والاختيار

دار النجاح
بيروت

بين العقيدة والاختيار

دكتورة عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطئ)

بين العقيدة والاختيار

دار النجاح
بيروت

دار النجاح للطباعة والنشر والتوزيع - شارع سوريا ، بناية صمدي
وصالحة، الطابق الثالث ٣٦ - هاتف ٢٤٥٨١٢ - ص.ب ٨٢١٨

... واذا كانت أمم أخرى تأخذ بالتفسير المادي للتاريخ فإن العقيدة هي التي تعطي تاريخ أمتنا تفسيره ومنطقه ...

د. بنت الشاطىء

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم : د. ابراهيم دسوقي أباظه

حول عثرات الفكر العربي المعاصر .. ينهض الخلف .. ويدق التعليل ...

ولقد صدر أكثر من مؤلف .. وجرى أكثر من بحث .. ينتحل الأسباب ، أو يعدد العوامل التي دفعت بهذا الفكر إلى منعرج التحليل ، وأودت به إلى مهاوي الاضمحلال .. ولئن كانت هذه الأسباب والعوامل تختلف في مضامينها ، تبعاً لاختلاف الزاوية التي يطل منها الباحث وطبقاً للتصور العقائدي أو المذهبي الذي يسيطر عليه .. فإنها ولا شك تجتمع حول حقيقة كبرى وهي : غيبة الوحدة الفكرية لأمتنا ...

وليس بخاف أن النظر العلمي يربط بين قيام الوحدة الفكرية .. وقيام الوحدة العقائدية .. فالأولى مردودة إلى الثانية ... فالوحدة الفكرية سندها تقارب روحي وتلاقٍ منهجي على درب العقيدة الواحدة.. ومن هنا يبدو التلازم بين الوحدة العقائدية والنهوض الحضاري ... فالوحدة العقائدية من المقومات اللازمة للحضارة الصاعدة .. بينما يكون الضياع العقائدي والتوزع المذهبي من السمات الملازمة للحضارة الهاوية المتردية ...

وإذا كان للعقيدة هذا الدور الخطير من الفكر ... فان اعلاءها بعد طول غياب يطرح من مشكلات العصر أخطرها .. لان صراع القوى الأعظم من أجل السيطرة لم يدع ميدان الفكر طليقاً من مؤثرات المذاهب.. بل قذف إليه بكل أثقاله . فمنذ اليوم الذي انتفت فيه احتمالات الصراع المسلح بين القوتين الأعظم بامتلاكهما معاً قدرة الردع النووي ... انتقل صراعهما الى ميدان آخر .. ميدان السيادة الفكرية.. وشهد العالم الثالث – خاصة خلال السنوات العشر الماضية – أعنف المعارك المذهبية .. التي كرست لإذكائها أعظم الطاقات ....

غير أن الصراع الفكري .. فوق أرض الإسلام .. يكتسي طبيعة خاصة تعود إلى أن قطبي الصراع من شرق وغرب متلاقيان على ضرب القيم الإسلامية وإن اختلفت البواعث وتباعدت الأسباب .. فالغرب الصليبي على صراع قديم مع الإسلام .. والشرق الشيوعي أيضاً على خلف مذهبي مع الإسلام .. فكلاهما يتخذ من سقوط القيم الإسلامية هدفاً أول لبسط سيادته الفكرية ونشر نفوذه المذهبي ...

وعلى هذا القدر الأدنى من الوفاق .. بين شرق وغرب .. تبدو أبعاد المعركة الفكرية التي يخوضها الإسلام بكل ضراوتها وعنفها ...

فكلتا القوتين تنتحل في ضرب الإسلام نفس المبررات وتركب إلى أهدافها ذات المسالك : إن الإسلام مسؤول عن التخلف .. وإن البناء الإقتصادي والإجتماعي لا يمكن أن يقوم بغير إزاحة القيم الإسلامية من الميدان ...

وباسم العصرية والتقدم.. تهاطل الغزو الفكري من شرق وغرب .. في مذاهب شتى اختلف ظاهرها بين رأسمالية وشيوعية .. واتحد باطنها في وحدة النبع الذي منه تستقي وإليه تعود : المادية .

ولئن قدمت هذه المذاهب بديلا للعقيدة الإسلامية .. فإنها لا تترادف معها في كثير أو قليل.. فابتناؤها على المادية تعطيل للجانب المعنوي في الإنسان ... وتعامل مطلق مع ماديته البشرية ...

وعلى ذلك .. يظل الإختيار المذهبي بين المعروض من المذاهب .. وهماً معلقاً تتنازعه الأذهان بين يمين ويسار .. لأن الاختيار موقف إيجابي يفترض بداهة المعرفة اليقينية بعناصره .. فإذا ما انتفت أسس هذه المعرفة فسد الاختيار وقام الإجبار ...

ويقطع في هذا أن الإلمام بعناصر المطروح من المذاهب يقتضي قدرة على اختراق جدار الاعلام المحيط بها .. كما يستلزم قدراً أدنى من الدراية العلمية تسمح بتحليلها واختيارها؛ ومثقفونا على سعة طموحهم مدفوعون دائماً بقانون الجهد الأقل .. يتهافتون على كل فكرة تستجدي عاطفة .. أو تداعب غريزة .. دون بحث عقلي أو محاكمة علمية ..

ومن هنا كانت مأساة الفكر الجاد عندما يتوجه بالخطاب إلى العقل .. في وسط يحتكم إلى العاطفة .. وعندما يجهد لإدراك وجه الحقيقة في محيط يؤثر الوقوف بها عند السطح ..

وأستاذة الجيل .. الدكتورة بنت الشاطىء .. تتصدى بنفاذ الفكر .. وعمق الخبرة لأدق القضايا التي تطرحها العقيدة .. فتعالج « مصير التيارات العقائدية وضرورة الإختيار » في ندوة عامة اجتمع لها نفر من المتخصصين *. فترفض القطع بالمصير .. لأنه في يقينها ليس سوى « غيباً في مضمر الغد » ، أما الإختيار بين المتداول من تيارات .. فتوليه عمق النظر .. ودقة التحديد .. فترفض الخلط الشائع بين المذهب والعقيدة .. فالتيارات المعاصرة ، إن هي « إلا مذاهب اقتصادية وسياسية واجتماعية محدثة انتحلت في عصرنا اسم العقيدة التي لا تتعلق بغير الدين » .

وعندما تطرح الدكتورة بنت الشاطىء قضية الإختيار .. فانها تستبعد من محيطها جيل الآباء .. لتحصرها في جيل الأبناء .. ولكنها تقف بهم عند منطق الإختيار .. لتتساءل إن كان شبابنا حقاً على بينة مما يختار أم أنه ضحية استهواء وانقياد تنعدم عنده كل حرية في الإختيار والتفضيل ؟

ولعل أعمق ما يسترعي الباحث ، هو ذلك الحوار النافذ بين الدكتورة بنت الشاطىء ، ونفر من المفتونين بالمادية الماركسية .. حيث وضعت في براعة ودقة حرية العقيدة .. أمام منطق الإختبار الجدلي .. وأبرزت في جلاء مصير هذه الحرية في ظل إكراه « العقيدة » الرسمية التي تفرض على العقل سلطانها القاهر .. فتصادر عليه حق الرفض .. وحق التفسير .. بل وتسقط عنه مجرد الحق في الخطأ .

---

* وهي الندوة التي دعت إليها الجمعية المغربية للتضامن الاسلامي بتاريخ ١٩٧٢/١٢/١٥ بالرباط حيث شارك فيها إلى جانب الدكتوره بنت الشاطىء الداعي الاسلامي الدكتور المهدي بن عبود ، والأستاذ محمد الحمداوي .

إن الشعارات التي يرددها جيل الأبناء من «عصرية» إلى «تطور» .. إنما تعكس في جوهرها أبعاد التمزق الفكري والضياع العقائدي الذي يعانون من وطأته ...

فباسم العصرية .. قذفوا التراث بالجمود .. وهم ولا شك عن حقيقته غافلون . وباسم التطور ركبوا كل بدعة .. وانتحلوا كل مذهب .. وفاتهم أن التطور لا يتناول كل شيء .. ولا يعبث بكل قيمة .. فهناك قيم سامية تعلو على تيار التطور .. فتبقى بمنأى عن كل تغيير أو تبديل ...

إن مشكلة العقيدة والإختيار تأخذ في ظروف اليوم خطورة خاصة .. فأمتنا الإسلامية تواجه أعنف التصفيات الحضارية بكيان مختل التركيب واهن الإيمان ...

وهي وإن كان عليها أن تخوض معركة البقاء ، فعليها أن تخوض أولا معركة العقيدة .. فلا بقاء بغير عقيدة توفر لهذه الأمة مقومات وجودها وتهيئ لها أسباب استمرارها ...

د. ابراهيم دسوقي أباظه

رباط الفتح في ٢٦ ربيع الثاني ١٣٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

«ولو كنتُ أَعلمُ الغيبَ لاستكثرتُ من الخيرِ وما مسَّني السوء ، إن أَنا إلا نذيرٌ وبشيرٌ لقوم يؤمنون»

صدق الله العظيم

أهلتي الأصدقاء ،

أعطيت الكلمة الأولى في هذه الندوة ، إذ ليس لديّ ما أقوله في موضوعها ، بل حديثي كله حول الموضوع .

ومن الحق أن أصارحكم بأنه لم يكن لي فيه اختيار ، بل لعلي كذلك لم أدر ، حين دعيت اليه ، ماذا عساي أن أقول فيه ، لكنني كرهت مع ذلك أن أعتذر عن عدم المشاركة في الندوة ، حرصاً مني على لقائكم ، ورغبة في التعلم والافادة مما يقوله فيها السادة الأساتذة الزملاء.

ثم اني تدبرت موقفي من الموضوع ، فبدا لي أنه من الطبيعي أن تختلف وجهات نظرنا وآراؤنا فيه ، وقد يكون من المجدي أن

أتحدث حوله ، معبرة عن وجهة النظر التي جعلتني بادىء ذي بدء ، أتردد فيه .

الموضوع يتعلق بمصير التيارات العقائدية وضرورة الاختيار .

من حيث المصير ، لا يكون حديثي عنه الا تخميناً وافتراضاً ، أو حدساً وتصوراً وتوقعاً ، ويظل المصير وراء ما يكون من حدسنا وافتراضنا غيباً في مضتمر الغد .

وطبيعي أن الذين يفكرون منا في مصير التيارات ، يقيمون تصورهم له على تقدير لاتجاه سيرها ، وحساب لاحتمال أبعادها . لكن الأحداث بطبيعتها متغيرة فليس من شأنها الثبات ليصدق توقعنا بالضرورة . وغير مستبعد في عالمنا الذي يتغير بين لحظة وأخرى ، أن يحدث في أي وقت ما يخلف التقدير والحساب ، ويتجه بمصير هذا التيار أو ذاك ، الى مصير غير الذي توقعه الحاسبون .

لا يعني هذا بطبيعة الحال ، ألا نشغل بالغد ونعمل له حساباً ، لكني أوثر أن أدع هذا المصير يتكلم فيه من يقفون في مراصد التيارات يرقبون مسارها . حسبي أن أتكلم عن واقع الأمس واليوم :

عن ماضينا الذي كان ، شهد فيه التاريخ أمتنا تحقق وجودها الكريم الحر تحت لواء عقيدتها ، وتبدع حضارتها الرائدة التي قادت مسرى البشرية في ظلمات عصورها الوسطى ، حضارة اسلامية الجوهر والروح والفكر والمنهج ، عربية اللسان والقلم ، شاركت فيها شعوب الأمة من

أقصى المشرق الآسيوي الى أقصى المغرب الافريقي ، وكان القرآن دليل هذه الحضارة الاسلامية الرائدة القائدة ، ومنارها ولواءها.

عن ذرائع الغزو الفكري الضاري الذي تسلط علينا في ليلنا الطويل، وجعل من عقيدتنا هدفاً لم يغب قط عن بصر الغزاة من كل جنس وملة، ليشوهوا الانسان فينا ويفرغوه من جوهر ذاته ويمسخوا ملامح أصالته،

عن حاضرنا البائس التعس ، الذي استعرنا فيه ثقافات الغرب وانتحلنا شتى مذاهبه ، وتوزعنا فيما بينها طرائق قدداً ذات اليمين وذات اليسار ، فما أغنى عنا ذلك كله شيئاً ، أي شيء ، فيما تعاني أمتنا من هزيمة وهوان وتمزق ، ولا أعطتنا المذاهب التي انتحلناها والمدارس التي انتمينا اليها ، أي عوض عن عقيدتنا التي نفرط فيها وأصالتنا التي هانت علينا .

عن هذا الواقع مما كان بالأمس وما هو كائن اليوم ، يمكن أن أتحدث . أما المصير في الغد فلا علم لي به ، الله يعلمه ، ولست الا كما قال شاعرنا الجاهلي الحكيم «زهير بن أبي سلمى» :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم

وأتلو من كلمات ربي ، ما تلا نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام:

« ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » .

فماذا عن التيارات العقائدية ؟

التيارات فيما أفهم ، لا تنسب الى العقائد ولا توصف بها . وانما هي مذاهب اقتصادية وسياسية واجتماعية محدثة ، انتحلت في عصرنا اسم العقيدة التي لا تتعلق بغير الدين .

وقد يبدو من عجيب المفارقات ، أن تنتحل هذه الصفة ، مذاهب معادية للدين ملحدة به منكرة له ، يبشر دعاتها في الناس باليقظة من تخدير ما سموه أفيون الشعوب ، ففيم تعلقها بصفة العقيدة التي عرفها تاريخ البشرية للدين وحده ؟

لكن هذا العجب يزول ، اذا عرفنا **أن التجربة الطويلة علمت قادة هذه المذاهب أن الإنسان لا يمكن أن يعيش في فراغ من العقيدة ، فكان أن أعطوا المذهب اسم العقيدة ، في محاولة لملء الفراغ الذي أرادوا عبثاً أن يملئوه بتعاليم مذهب إقتصادي اجتماعي . وأفضى بهم اليأس إلى أن يجعلوا من قادتهم آلهة على الأرض ، لعلها تلبي ما في وجدان الشعوب من نزوع فطري راسخ إلى التعبد .**

وثبت عقم المحاولة لاحلال المذهب بديلا من العقيدة ، وكانت وصية الفيلسوف «بالميرو توليياني» الزعيم الراحل للحزب الشيوعي الايطالي، تلح على ضرورة تمدير الحزب لغلبة السلطان الديني، وتنصح لقادة المذهب بأن يتقوا أزمة عداء المذهب للدين .

ومضى «بالميرو» تاركاً وصيته وثيقة تاريخية تحذر من خطر اصطدام

المذهب بالعقيدة الدينية ، فبدأت محاولات المصالحة مع الأديان ، من منتصف القرن الحالي - أي بعد قرن من اعلان ماركس (المانيفستو) سنة ١٨٤٨ - فسمحت روسيا لأفواج من مسلمي آسيا السوفيتية بالسفر الى مكة لأداء فريضة الحج ، ودعت عددا غير قليل من علماء الاسلام ومفكريه في المشرق والمغرب ، لحوار مع أقطاب المذهب ، قصداً الى التعايش السلمي مع شعوب الأمة الاسلامية .

كما استقبل البابا الراحل «بول السادس» في الفاتيكان ، عدداً من أقطاب الشيوعية . وجرت مفاوضات بين ممثله «الكاردينال فرانز كوينج» - كردينال النمسا - وحكومات المجر ويوغسلافيا ثم تشيكوسلوفاكيا للاعتراف بحق الكنيسة في التوجيه الديني لرعاياها الكاثوليك ، دون المساس بسلطة الحكومة .

تلك كانت تجربة الشيوعية في مقاومتها لما سمته «أفيون الشعوب» ومحاولتها أن تحرر الانسان من سلطان العقيدة ، ومضى قرن وبعض قرن ، فما استطاعت أن تعطي عن العقيدة بديلا .

وقرن كامل ليس وقتاً قصيراً في امتحان وتجربة ، وبخاصة بالقياس الى عصرنا في جرأة اقتحامه وسرعة تغيره وامتداد آفاقه .

ولا أدري مصير المحاولات المبذولة للمصالحة التي فرضها رسوخ التدين في فطرة الانسان ،

قصارى ما أدريه ، والله أعلم ، أن بين هذه المذاهب المعاصرة

والدين ، تناقضاً أساسياً يصعب تلافيه والتغلب عليه .

وأقول : المذاهب ، بصيغة الجمع ، لأن الرأسمالية منها كالشيوعية سواء ، في تناقضها مع العقيدة الدينية ، على ما يبدو في ظاهر الأمر من غرابة الجمع بين الرأسمالية والشيوعية في هذا السياق .

وبيان ذلك ، **أن الدين مع بالغ تقديره لبشريتنا ، يتعامل مع إنسانية الإنسان التي يفترق بها عن جنسه الحيواني العام .**

العقيدة والايمان ، من خصائص الانسانية . وكل تكاليف العبادات والشعائر والقيم الأخلاقية ، أمور تتعلق بانسانيتنا . فنحن بهذه الانسانية لا بالحيوانية فينا ، نؤمن ونتعبد ونتقي ونخشع ونخطىء ونتوب . وبانسانيتنا نختلف ونتفاضل ، فيكون منا المؤمن والكافر ، المهتدي والضال ، والتقي والفاجر ، الكريم واللئيم ، الطيب والخبيث .

ولا شي من هذا ومثله ، يتعلق ببشريتنا المادية التي تأكل الطعام وتمشي في الأسواق ، ونتماثل فيها جميعاً لا فرق بين مؤمن تقي ، وكافر فاجر .

المذاهب الشيوعية والرأسمالية تتعامل مع ماديتنا البشرية التي ننتمي بها الى عموم جنسنا الحيواني ، وليس مع انسانيتنا التي تحمل أمانة عقيدتها لا تكره عليها ، ومسئولية سلوكها وسعيها ، وتبعة ارادتها الكسبية فيما هو متروك لحرية اختيارها من قول أو عمل . وهي أمانة صعبة انفرد الانسان بحملها دون سائر الكائنات التي تخضع للتسخير المطلق ، فيعفيها التسخير من المسئولية والحساب .

المذاهب المعاصرة ، الشيوعية منها والرأسمالية ، **تعطل أمانة** الانسان بفرضها الاكراه المذهبي . وتلغي ارادته الحرة باخضاعه لتعاليم المذهب في القول والفعل ، على وجه الالزام والتسخير المطلق. وقد نعلم أن الدول الشيوعية لا تسمح لأحد من رعاياها بأن يميل الى الرأسمالية ، **لكننا قلما نذكر أن أمريكا ، قمة الرأسمالية ، لا تسمح كذلك لأحد باعتناق الشيوعية .**

والنظم الشيوعية تأخذ قوتها ، ان لم تأخذ سبب وجودها ، من تأمين الحاجات المادية للبشر ، صادقة في ذلك مع نظريتها في التفسير المادي للتاريخ .

وفي الطرف المقابل ، تقوم الرأسمالية ، على المادية أيضاً ، لأنها رأسمالها، وتحاول كذلك أن تؤمن بقاءها في صراع المذاهب ، بتأمين الحاجات لشعوبها ، اتقاء تمردها وسداً لذرائع الدعاية الشيوعية.

فليكن أن هذه المذاهب وتلك ، استطاعت حقاً بوسيلة أو بأخرى أن توفر للناس الغذاء والمسكن والعلاج والدواء ، هل يخرج هذا كله عن نطاق بشريتنا المادية الحيوانية ؟

ما من حيوان ، بشراً كان أو بهيمة أو وحشاً أو حشرة ، يستغني عما تقوم به حياته من ضرورات مادية . كل الحيوان يأكل ويشرب ويسكن ويتناسل ، ويلتمس الدفء والراحة والسلامة من الأذى والمرض.

والإنسان وحده ، هو الذي يصوم نسكاً ومجاهدة ، ويطيق الجوع

الإختياري والحرمان الإرادي ، ولا يطيق الذل والعار ، وقد يبذل حياته فدية لشرفه وكرامته وعقيدته ووطنه .

والتدين فطرته ، لأن الدين مع تقديره لبشريته ، ينظر وراءها الى انسانيته التي يكابد بها معركته الأبدية بين الحق والباطل ، بين الخير والشر ، بين الجمال والقبح .

ثم ان الدين يحمي الانسان فينا ، من لعنة العدم التي تجعل حياتنا الدنيا عبثاً لا يطاق ، وعبثاً عقيماً ينتهي بضجعة في القبر ، للبلى والفناء .

وفي تقرير الدين للحساب والجزاء ، يحمي الحياة الإنسانية من ضراوة المادة وفوضى العبثية .

والشيوعية صريحة الموقف من الحياة الآخرة . والرأسمالية على ما تدعي من تدين ، تسلك سلوك من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، طاغوت المال يفتنها عن عبادة الله ، ولا يصح في العقول أن تقيم الرأسمالية وزناً لأي حساب في الآخرة ، مع فحش الاستغلال وضراوة الاحتكار وامتصاص عرق الكادحين واستنزاف أقوات الشعوب بالربا والنهب والاغتصاب .

من رؤيتي لهذا التناقض بين الدين والمذاهب الشيوعية والرأسمالية ، كان التفاتي الى أن هذه التيارات لا تكون عقائدية إلا على وجه الانتحال أو الايهام .

فماذا عن ضرورة الإختيار ؟

في هذا أيضاً فكرت أتساءل : من الذي يختار ؟ أهو جيلنا نحن الآباء الكهول ، أم جيل أبنائنا الشباب ؟

بالنسبة الينا ، لا أرى الموقف يحتمل أي اختيار يضع عقيدتنا في ميزان المفاضلة تجاه التيارات المذهبية المحدثة ، إذ لسنا مخيرين بين أن ننتمي الى عقيدتنا أو الى غيرها من تيارات ولو وصفت بالعقائدية. لسبب بسيط : **هو أن الإنسان لا يختار بين أن يكون هو ذاته أو غيره . بين أن ينتمي إلى أصله أو ينتمي إلى الغرباء دعياً بغير أصل .**

بل لست أتصور امكان الاختيار في مجال العقيدة التي هي من جوهر شخصيتنا الضاربة جذورها في أعماق وجود أمتنا : قانون الطبيعة لا يسمح بالبقاء لنبت شيطاني بغير جذور ، وقانون الوراثة لا يعترف بامكان التخلي عما نحمله جبرياً من حيث ندري أو لا ندري ، من ميراث صنع شخصيتنا القومية بكل خصائصها المميزة وعناصرها الأصيلة .

وإذا كانت أمم أخرى تأخذ بالتفسير المادي للتاريخ ، فإن العقيدة هي التي تعطي تاريخ أمتنا تفسيره ومنطقه ، في مختلف مراحله وأدواره ، ما بين تألق ورقي وسيادة وقيادة ، وخمول وتخلف واستعباد وهوان ، فلننظر أين نحن ، بما فرطنا في عقيدتنا ، وأين كنا حين لم نعرف غيرها ديناً ولم ندن لغيرها بولاء ؟

ومن واقع تاريخنا ، لا أجد لمثلي مجالا لهذا الاختيار بين التيارات التي تتجاذب انسان العصر ذات اليمين وذات اليسار ، من حيث أرى أن الانسان لا يختار بين أن يكون أو لا يكون ..

فهل الإختيار متروك لإبنائنا جيل الشباب بما هم أصحاب الغد ؟

ذلك ما يبدو طبيعياً ،

ولكن منطق حرية الاختيار في العقيدة والفكر والمذهب ، أن يكون الانسان على بينة مما يرفض أو يقبل .

ومع الجهل بالمرفوض أو المقبول ، تتحدد زاوية الرؤية ومجال التفاضل ، فتنتفي حرية الاختيار.

ومع الجهل بكليهما ، يكون ضحية الاستهواء والانقياد الأعمى، لا يملك من أمره شيئاً ولا يدري فيم السير الى يمين أو الى يسار .

وهذه هي مأساة شباب اليوم ،

ضحايا الصراع المذهبي الذي استدرجهم من حيث لا يدرون ، إلى الإنتماء إلى غير أصولهم ، وخايلهم بوهم الحرية في الفكاك من (روابط) العقيدة والتمرد على القيود والأغلال التي تنميهم إلى أمتهم وتنسبهم إلى أبنائهم .

وصراع المذاهب يعتمد أساساً على وسائل الدعاية ، تمكن لها من منافذ السيطرة على العقل والوجدان والضمير . وتتسابق قوى العصر

المارِدة على مناطق النفوذ الإعلامي ، بخطط بالغة التعقيد ، تضعها أجهزة متفرغة يتفاوت نجاحها بمقدار ما تملك من مكر الحيلة وذكاء الدهاء ومضاء الوسيلة .

وعلى قدر ما يبدو صراع القوى والمذاهب رهيباً وضارياً ، فإنه في الواقع محكوم بمنطق التواطؤ على الشعوب المستضعفة ، والتعادل في موازين القوى المسيطرة على عالم اليوم .

وقد دار علينا الزمان ، فألقى بنا في دوامة هذا الصراع ، بعد أن مكن له غزو فكري جائح ، وزع انتماءنا الثقافي على مدارس متنافرة، ووزع ولاءنا على مذاهب متناكرة ، وحجب عن شباب الأمة من ماضي تاريخها وقيم عقيدتها ما يحمي أصالتهم في مهب التيارات الغازية ، ويحصنهم بمناعة ضد الإستهواء والتغرير والتخدير .

وباسم الحرية والعصرية ، فرطوا في أصول شخصيتهم المميزة وجذور وجودهم العريق ، عن جهل بقيمتها وعطائها .

وبالجهل تفقد حرية الإختيار منطقها ، فلا يكون الاختيار الا انقياداً أعمى لما يستهوي الشباب الجاهلين بتاريخهم وعقيدتهم الغرباء في وطنهم ، من جواذب التيارات.ولا تكون الحرية إلا عبودية جبرية لما يتسلط عليهم من سحر الدعاية ومخدرات الإعلام .

في حوار لي مع بعض الماركسيين من شباب الجيل ، قالوا :

« إننا والملايين أمثالنا مسلمون بالجبر والإلزام ، ثم بالتبعية

والتقليد . يولد أحدنا فيقرر له أبواه عقيدته وتسجل في شهادة ميلاده من قبل أن يفتح عينيه . ثم يشب عن الطوق ويتفتح إدراكه ، ليجد نفسه مقيداً إلى دين لم يؤخذ رأيه فيه ، ولا يملك أن يرتد عنه في مجتمع مسلم ، دون أن تطارده لعنة الردة » .

وعجبت لجبروت الإلزام المذهبي ، يخيل إلى هؤلاء المفتونين أنهم الأحرار فيما ينتمون اليه ، وما لأحدهم فرصة اختيار أو مجال تفكير ورأي . وقدرت أني إن واجهتهم بما أعلم من فتنة الإستهواء وسحر التنويم بأفيون العصر ، حملوه مني على محمل الغباء أو التعصب ، فقلت أجادلهم بالتي هي أحسن :

ـ الذي أعلمه من أصول ديني ، أننا ببلوغ سن الرشد والتكليف ، نحمل مسئولية عقيدتنا وأمانة إنسانيتنا ، فليس أبواي بحيث يحملان عني تبعة أو جزاء : «ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » وأعوذ بعقيدتي من أن أكون ممن يعطلون عقولهم وأسماعهم وأبصارهم وأنا أتلو من كتاب ديني : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » ؛ فماذا لديكم تقدمونه إلى إنسانيتي من قيم مذهبكم المحدث ، في مقابل ما أعطاني الاسلام ؟ هل يسمح لي مثلا بأن أكون من رعايا روسيا ، ولا أعتنق الماركسية ، التي جعلت عقيدة ؟

قالوا : يقيناً ، لا .

قلت : فاعلموا إذن أن الإسلام يحظر الإكراه في العقيدة ، وقد عاش النصارى واليهود وغيرهم في ديار الإسلام من عصر المبعث إلى يومنا هذا ، يمارسون عبادتهم أحراراً ، لم يكرههم أحد قط على حرمة كنائسهم ومعابدهم .

فافرضوا جدلا أنني في روسيا أنتحل الماركسية الزاماً ، هل يسمح لي بأن آخذ فيها مثلا بتفسير ماوتسي تونج ، أو العكس ؟

ردوا : كلا ، بالتأكيد .

قلت : فاعلموا اذن أن حرية العقل في الإسلام ليست رخصة يجوز لنا أن نمارسها أو نتخلى عنها ، بل هي فيه من جوهر إنسانيتنا الناطقة ، فاذا تعطل العقل بالغفلة أو المصادرة ، مسخت إنسانية البشر وهبط إلى دونية الدواب العجماء : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » .

فافرضوا مثلا أنني آخذ هناك أو هنالك بتفسير القوم ، هل يباح لي أن أبدي رأياً مخالفاً لسدنة المذهب وقادة الفكر ؟

قالوا بعد تردد وحيرة : الأمر يتعلق بالرأي المخالف ، هل هو في حدود المباح أو غير المباح .

قلت : فاعلموا إذن أن حرية الرأي والكلمة في عقيدتي الإسلامية

فريضة ملزمة ، توجب علينا الأمر بالمعروف والنهي عما نراه منكراً ، وتحرم علينا كتمان الجهر بما نعتقد أنه الحق ، والساكت عن الحق شيطان أخرس .

فافرضوا أنني تحت ضغط الإلزام المذهبي ، كتمت كلمة الحق أو حيل قسراً بيني وبين الجهر برأي مخالف ، هل يسمح لي مثلا بأن أختار لنفسي ما أقرأ من كتب العقائد والمذاهب دون أن أتعرض لاتهام واضطهاد ، أو ألتمسها من وراء الحدود ، دون مصادرة فكرية ؟

فسكتوا لا يحيرون جواباً ، وقلت : فاعلموا إذن أن الاسلام يوجب علينا الإقرار بأنه مصدّق لكل رسالات الدين قبله ، ويفرض علينا أن نطلب العلم ولو في الصين .

فافرضوا مثلا أنني في روسيا أو في الصين لا أقرأ سوى ما يفرض عليّ من كتب المذهب وثقافته ، هل يسمح لي مثلا بحق الخطأ فيما أفهم وأمارس من تعاليم المذهب ؟

قالوا : يمكن من الوجهة النظرية باعتباره خطأ فردياً ، لكنه من الوجهة العملية مستحيل ، لأنك لا تعيشين منفردة بمعزل عن المجتمع ولو في نطاق البيت والمدرسة والعمل ، ولا بد أن تسري عدوى الخطأ إلى بعض من حولك من أفراد الأسرة والجيران والأصدقاء والرفاق .

قلت : ولكن جواز الخطأ على الناس جميعاً أصل من أصول

عقيدتي الإسلامية . التي لا تعترف بالعصمة من الخطأ لأي مخلوق ، الكمال لله وحده ، وله سبحانه المثل الأعلى .

فافرضوا جدلا أنني تحاشيت الظهور بالخطأ ، وتظاهرت بالإلتزام تقية ومداراة ، هل آمن أخضع لمراقبة مرهقة تكشف عما أخفي ،وأعرض على أجهزة مدربة ، تستخرج مكنون سري ومستور أمري ؟

وتحيروا لا يدرون بم يجيبون .

وقلت : فاعلموا إذن أن الضمير في عقيدتي الإسلامية منطقة حرام لا يحل أن تنتهك ولا أن تستباح .الله وحده يعلم النوايا وأسرار القلوب وخفايا الصدور .

وفي عصرنا تنتهك هذه المنطقة الحرام ، وتخضع أفكار الإنسان وهواجسه وأسراره لأبشع ضروب المصادرة والعبودية التي لا يقاس بها ما كان يعاني الرقيق في الدهر الغابر : يكبل بالسلاسل والأغلال في رجليه ويديه وعنقه، ويبقى له عامله النفسي مطلق السراح لا سبيل إلى اقتحامه ، ولا سلطان لسيد على هواجسه وخواطره . وإنسان العصر قد أبدل بالرق الجسدي ، استرقاق العقل والنفس والضمير .

وأعود فأسأل : ماذا يعرف أبناؤنا الشباب من **عطاء دينهم وقيم عقيدتهم ليصح لهم اختيار حر ؟**

إن الأمر يتشابه عليهم فيلبسون ما هو من أصول الدين وجوهر

العقيدة بما طرأ على المجتمعات الإسلامية من منكر البدع وشوائب الخرافات وزور التأويلات ، وتعييهم الوسيلة إلى معرفة دينهم ووعي بتاريخهم والإتصال بتراثهم ، بعد أن عطل لسان قوميتهم بدعوى بداوة العربية ،ليظلوا في منطقة الجاذبية للثقافات الغازية والتيارات الوافدة؛ تفتنهم عن عقيدتهم التي أكرمت الإنسان بعزة التوحيد ، وحملته أمانة إنسانيته ، فحررته من سلطة الكهنوتية ورفعت عنه إصرها والأغلال ، ووضعته تحت رقابة ضميره الحر ، وحساب نفسه اللوامة .

وهم يلقون أسماعهم إلى ما يقال عن رجعية الدين ، لا يخطر على بالهم أن يسألوا فيم تشتد وطأة الحملة على ديننا برجعية الإنتماء إلى القرن السابع بعد الميلاد ، ولا يتعرض لمثل هذه الحملة ، سائر الأديان التي سبقته بسبع قرون وعشرين وأكثر .

بل قلما يفكرون في مجال هذا التطور الذي يخايلهم : هل تتطور القيم والمثل العليا التي يستشرف الدين بالإنسان اليها ، في سعيه الدائب لتحقيق وجوده الكريم الحر ، وطموحه الأبدي إلى الحق والخير والجمال ؟

مثلا ، هل يتطور التوحيد ، وهو جوهر الدين كله ، فيدين الإنسان بالعبودية لغير خالقه وحده ؟

أو يتطور مقياس التفاضل بين الناس ، خلقهم الله من نفس واحدة ، وأكرمهم عند الله أتقاهم ؟

أو يتطور مفهوم العقيدة الإسلامية لحرية العقيدة والعقل والفكر والرأي والإرادة من حيث هي تكاليف ملزمة وواجبات مفروضة وأمانة صعبة وليست حقوقاً يجوز أن تصادر ، أو يحل للإنسان أن يفرط فيها ويتخلى عنها برضاه أو بالقسر والإكراه ؟

أو تتطور دعوة الدين إلى التقوى والعفة والصدق والأمانة والتراحم والتكافل والأمر بالمعروف والتواصي بالحق والخير والتناهي عن المنكر ، وتقريره تبعة القول والعمل ، وحتمية الحساب والجزاء ؟

كلا ، إنما تتطور نظم الحياة ووسائل العيش ومراحل التقدم العلمي . والدين في ختام رسالاته ، قد وضع أصول العقيدة وبين مبادئها الكلية الكبرى ، تاركاً ما عداها من تفصيلات لمقتضيات سير الزمن ودواعي تغير الظروف والأوضاع ، وهذا هو منطق عالميته وخلوده ، صالحاً لكل مكان وزمان .

وحركة التطور مع التقدم العلمي ، سنة من السنن الكونية الثابتة ، والأصل في العقيدة الإسلامية أن علم الإنسان كسبي ينمو ويتقدم . «وقل رب زدني علماً» ويكتشف جديداً من مجاهل الوجود وآفاق الكون تحقيقاً لآية الله فيما سخر للانسان : ما في السماوات وما في الأرض جميعاً .

لقد يحق لي أن أسأل عن موقف أبنائنا منا ، حين يكشف الغطاء عن أبصارهم وبصائرهم ،فيحملوننا وزر ما عرضناهم له من ذرائع المسخ والتشويه والغربة والضياع ، ممزقين بين ما في ضميرهم من ولاء لامتهم

عقيدة وقومية ولساناً ، وما يتجاذبهم من شتى التيارات الوافدة عن يمين ويسار ، وهم يواجهون بهذا التمزق عار إسرائيل وتكاليف معركة وجود أمتهم ، وتحديّات العصر .

وبعد وقبل فما ينبغي لي ان أنسى بعد هذا الحديث حول الموضوع أن أحتاط فأقول : لعل المقصود بالتيارات العقائدية غير ما فهمته من التيارات المذهبية المحدثة المعاصرة .

فلأترك الكلمة في الموضوع للسادة الأساتذة الزملاء ، مع رجاء المعذرة ، وتحية الشكر الجميل .

دكتورة عائشة عبد الرحمن

(بنت الشاطىء)

منشورات
الجمعية المغربية للتضامن الاسلامي

هذا الكتاب

كيف يمكن الاختيار بين المطروح من العقائد والتيارات اذا انتفت المعرفة اليقينية بموضوعها ؟

أليس من الحق التساؤل ان كان جيلنـا على بينة مما يختار أم أنه ضحية استهواء وانقيـاد أعمى تنتفي عندهما كل حـرية في الاختيـار والتفضيـل ...

ان هذا الكتـاب يعرض في تركيز وعمق لهذه القضيـة الحيوية .. ومن خـلال أعظم الأقلام التي عرفها العصر ..قلم الدكتورة بنت الشاطىء ...

الناشر

الثمن : ١٥٠ ق. ل. او ما يعادلها

الناشر - دار النجاح - بيروت